تاريخ العراق الحديث

(١٥٣٤-١٩١٧)

الدكتور

محمد عصفور سلمان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned with CamScanner

الأوضاع العامة في العراق ١٢٥٨-١٥٠٨

الاحتلال المغولي (الايلخاني) ١٢٥٨-١٣٣٧

كان غزو المغول للعراق جزءا من حركة واسعة تستهدف اقامة امبراطورية مغولية ، وكان تقدم هولاكو الى العراق متمما لغزوهم للعالم الاسلامي الشرقي .

بدأ التهديد المغولي لتخوم العراق عام ١٢٢١م ، وكان الخليفة العباسي بإمكاناته العسكرية والسياسية المحدودة غير قادر على مواجهة الامبراطورية المغولية التي ضمت اغلب الصين وتركستان ومقاطعات من الهند واجزاء كبيرة من روسيا وايران واسيا الصغرى والتي كانت تمتلك مصادر هائلة من الرجال والسلاح والمال .

لم يظهر الخلفاء العباسيون المتأخرون اهتماما جديا بالخطر الذي كان يتهدد بلادهم ، ولذلك لم يضعوا سياسة واضحة لمعالجته أو درئه أو الاحتياط له . وقد أخذت مظاهر الانحلال السياسي تتزايد بعد تولي المستعصم بالله الخلافة العباسية عام ١٢٤٢م .

في عام ١٢٥٧م وصلت جيوش المغول بقيادة هولاكو الى همذان ومن هناك ارسل الى الخليفة العباسي يتهدده ويتوعده مطالباً إياه بالتسليم ، ولكن الخليفة رفض ذلك ، وفي اوائل محرم ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م اشتبكت القوات العباسية بالقوات المغولية عند الدجيل ، وانتهت المعركة بتحطيم الجيش العباسي ، في حين تقدم هولاكو من خانقين بالجيش المغولي الرئيسي المؤلف من ٢٠٠٠٠٠ محارب الى بغداد ، فنزل الجانب الشرقي منها أواسط محرم ، واطبقت قواته عليها من كل الجهات وبدأ القتال في اواخر محرم ، ونجح الجيش المغولي في اختراق السور من بعض المواقع . وفشلت محاولات الخليفة في التوصل الى حل سلمي ، فاضطر الخروج مع عائلته لمقابلة هولاكو ، فحجزوا ثم قتلوا .

ودخل الغزاة بغداد في ٥ صفر ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م وفتكوا باهلها سبعة أيام أو يزيد واستولى الخراب على المدينة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned with CamScanner

وبعد انتهاء عمليات الاستباحة ، أمر هولاكو باصلاح بعض ما خرب وترميم الاسواق ورفع جثث القتلى ، ورحل هولاكو عن المدينة بعد ان فوض أمرها الى جماعة معينة لاعادة تنظيمها وابقى على التشكيلات الادارية كما كانت في العصر العباسي الاخير ، ووضع على رأس الادارة بعض المسؤولين في العهد السابق للاستفادة منهم ريثما تتكون مجموعة من الاداريين المغول . وابقى فرقة من الجيش المغولي مؤلفة من ثلاثة الاف محارب حامية للمدينة ، وارسلت قوات مغولية الى انحاء العراق الاخرى ، فتم احتلال اربيل بعد مقاومة من اهلها ، كما احتلت الموصل عام ١٢٦١م وهكذا خضعت اغلب مناطق العراق لسيطرة المغول الايلخانيين ، وقتل عدد كبير من سكانه ، وخربت اجزاء كبيرة من مدنه وقراه .

تحول العراق بعد الاحتلال الى ولاية من ولايات الامبراطورية الايلخانية المترامية الاطراف . وقسم العراق على ولايات ثلاث :

١. العراق ، وهو القسم الاهم ، ويمتد ما بين الزاب الاعلى الى عبادان طولاً ، ومن القادسية الى حلوان عرضاً .

٢. الجزيرة الفراتية ، وفيها الموصل وسنجار والعمادية واربيل .

٣. بلاد الجبل وفيها مدينة شهرزور .

وكان العراق احدى الولايات الايلخانية المهمة . وعاصمتها بغداد ، وترد في الكتابات ايضا مدينة السلام ، وقد زارها الامراء الايلخان عدة مرات .

وكان ما يسمى (صاحب الديوان) هو الحاكم الاعلى في العراق ، وهو الذي يعين كبار الموظفين وغيرهم ، والى جانب صاحب الديوان ، هناك (كاتب الحسبة) وهو مسؤول عن كتاب الولاية وبيده اسرارها ، ويطلق عليه أحيانا اسم (كاتب العراق) ، وبقى منصب (قاضي القضاة) وهو الذي يعين القضاة في مختلف انحاء البلاد ويتولى امر مراقبتهم ونقلهم وعزلهم وبقيت (الحسبة) وصاحبها المحتسب ومهمته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراقبة الاسواق ، كما كانت هناك وظيفتان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned with CamScanner

اداريتان هما : الصدر والناظر ،(والصدر) يطلق على رئيس الوحدة الادارية ويشرف على ادارة القوات العسكرية في تلك الوحدة وحماية امنها ، أما (الناظر) فهو موظف من أولى مهماته النظر في الشؤون المالية .

وأهم الوظائف العسكرية : (الشحنة) و (نائب الشرطة) . فأما الشحنة فكان القائد العسكري الاعلى ومهمته المحافظة على الامن والقضاء على الثورات وحركات التمرد ومراقبة صاحب الديوان . لضمان ولائه للدولة . ولهذا ظل آمر هذه الوظيفة بأيدي المغول عامة الى آخر العهد الايلخاني أما نائب الشرطة فانه مسؤول عن المحافظة على الامن في بغداد .

وكانت ادارة الامبراطورية الايلخانية لامركزية ، ويتمتع حاكم العراق بدرجة من الاستقلال في ادارة شؤونه مقابل تقديمه المال اللازم لخزينة الامبراطور وارسال القوات العسكرية المناسبة له في حالات الحرب .

ومن اهم سمات حكومة العراق في العهد الايلخاني ، عدم الاستقرار والفساد الا ان ذلك العهد لم يخلُ من اعمال عمرانية نادرة ولا سيما في عهد الايلخان السابع غازان محمود (١٢٩٥-١٣٠٣) الذي أصبح الاسلام في عهده دين الدولة الرسمي ، الا أن تلك الاصلاحات كانت وقتية وذات أثر محدود فاستمر الامن مضطربا خارج المدن ، واستمرت البلاد منهوكة القوى لما اصابها من الخراب . ومن المعلوم ان رخاء العراق يعتمد بالدرجة الاولى على الزراعة التي يقوم ازدهارها على نظام الري . ولكن السلاطين الايلخانيين وحكامهم في العراق لم يهتموا بتطهير الانهار والقنوات ، ولا بفتح قنوات جديدة ، ومن نتائج هذا الاهمال ان الفيضانات سببت دمارا كبيرا في المدن والاراضي الزراعية ومن الطبيعي ان ظروف البلاد الاقتصادية والمعاشية المنخفضة والتخلف وقلة المستشفيات وعدم العناية بها ، ادى الى ان يتعرض العراق لعدد من الامراض الوبائية والمستوطنة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned with CamScanner

ومع قلة الاهتمام الذي وجهته الدولة الى حالة العراق الاقتصادية ، كانت الضرائب ثقيلة وخاضعة لأهواء الحكام وجشعهم . ومن تلك الضرائب : ضريبة الخراج وضريبة الرؤوس أو الجزية وهي عامة على الجميع ، وضريبة الاسواق والعقارات وضريبة المراعي وحصة الديوان من الاوقاف ومقدارها العشر ، فضلا عن ما كانت تحصل عليه من غش النقود وانقاص نسبة الذهب والفضة فيها ، وأخيرا ما ينفقه اصحاب الدور على الجنود الذين كانت تفرض اقامتهم عليهم احيانا وكان التعسف السمة البارزة في جباية الضرائب المختلفة .

لقد أدى ثقل الضرائب وتعسف جبايتها وضعف العناية بنظام الري الى تدهور احوال البلاد اقتصاديا وازدياد الخراب في بعض المدن فانحسرت المظاهر الحضارية وانتعشت البداوة مكانها.

أستمر حكم السلالة الايلخانية قرن من الزمن تقريبا ، وكان ابرز اسباب ضعفهم هو الصراع على السلطة بين امراء البيت المالك ، انتهى ذلك الصراع باندلاع حرب اهلية ، عمت ارجاء البلاد وانتهت عندما تسلمت الحكم الأسرة الجلائرية .

عهد الاحتلال الجلائري للعراق (١٣٣٧-١٤١١)

اسس الشيخ حسن بن حسين الجلائري المشهور بـ(حسن الكبير) الاسرة التي اصبح العراق عام ١٣٣٧م جزءا من ممتلكاتها وجلائر هي احدى القبائل المغولية التي ارتبطت بجنكيزخان ، ونال زعمائها نفوذا لديه .

ففي عام١٣٣٢ اصبح حسن حاكما على بلاد الاناضول ، واستغل مكانته والنفوذ الذي حققه في ديار بكر والعراق فخاض الصراع الذي اجتاح الامبراطورية الايلخانية على اثر وفاة ابي سعيد عام ١٣٣٥م ، وبعد سلسلة من المعارك استقر حسن في بغداد عام ١٣٣٧ واعلن استقلاله عن الايلخانيين وقد شهد العراق في عهده حقبة من الهدوء والاستقرار ، وازدياد الاهتمام بالإدارة والعمران وتواصل ذلك في عهد ابنه معز الدين (١٣٥٦-١٣٧٤) الذي اتخذ لقب سلطان .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Scanned with CamScanner